السنوسيون

للأستاذ حسين جعفر

السنوسيون هم طائفة من الإخوان المسلمين تعتقد بولاية السنوسى . ومؤسس هذه الطائفة هو السيد محمد بن على ابن السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى المهاجرى ، ويسمى عادة الشيخ السنوسى أو السنوسى الكبير . ولد بالقرب من صحاجانم ببلاد الجزائر ، وأطلق عليه اسم السنوسى تيمناً بولى من أولياء الله موجود قبره بالقرب من تلمسان . وتاريخ ميلاده غير معروف بالضبط ، والمصادر المختلفة ذكرت السنين : ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٦ ، ١٨٠٣ ميلادية

وهو ينتمى إلى قبيلة ولد سيدى عبد الله ، ويتصل نسبه بالسيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحينما كان صغيراً قضى بضع سنوات فى فاس حيث درس التوحيد والفقه الإسلامى . ولما بلغ الثلاثين غادر مراكش فى رحلة إلى المناطق الصحراوية الواقعة فى بلاد الجزائر ، داعياً إلى إصلاح العقيدة والإيمان ، ومن الجزائر رحل إلى تونس ومراكش فالتف حوله كثير من المريدين والأتباع .

ثم ذهب إلى القاهرة حيث عارضه علماء الأزهر الشريف وعدوه مبدعاً فى أحكام الدين، فغادر مصر إلى مكة وهناك اتصل بسيدى محمد بن إدريس الفاسى زعيم الطريقة القادرية المراكشية . ولما توفى سيد محمد بن إدريس الفاسى أصبح السنوسى رئيساً لأحد فرعى طريقة القادرية . وقد أسس أولى زواياه فى سنة ١٨٣٥ فى أبو قبيس قريباً من مكة ، وأثناء إقامته بشبه جزيرة العرب اتصل بالوهابيين ، وكان لهذا الاتصال أثر محسوس فى النظر إليه بعين الشك والارتياب من علماء مكة . وفى مكة نفسها اكتسب السنوسى أكبر وأقوى عضد فى شخص محمد شريف أمير وادای الذى تولى ملكها فى سنة ١٨٣٨ وهى أقوى إمارة إسلامية فى وسط السودان . وحينما وجد السنوسى معارضة قوية فى مكة غادرها فى سنة ١٨٤٣ إلى برقة وهناك بالجبل الأخضر أسس الزاوية البيضاء بالقرب من بلدة درنة . وكان على اتصال دائم ووثيق بجميع الغاربة ، وأيده كثير من الأتباع الطرابلسيين والمراكشيين

وكانت الحكومة العثمانية الحاكمة لطرابلس فى ذلك العهد

زكى مبارك وجمال عبارته الفنى الذى يخيل إلىّ أنه ينسجها من روحه ودمه ، وتسلسل الدكتور طه حسين واختصاصه بأسلوب رائع ، ومنطق الأستاذ أحمد أمين وحرصه على الفكرة ، لا أستطيع أن أنكر هؤلاء جميعاً وغير هؤلاء لأنى أبحث عن الحق ، كما أنى لا أستطيع أن أنسى الرافعى وسحر الرافعى وشوق وحافظ والزهاوى ، لا أستطيع أن أنكر فضلهم ، كما أحب ألا ينكر منا التابع ... فقد كان منا الشابى وشقيق الراحل ؛ ولم يزل فينا صالح جودت ، والعطار ، ومحمود إسماعيل ، ومختار الوكيل ، والموصلى الوكيل . ولم يزل فينا الذى يقول :

قد عصرتُ الفؤاد خمرة وجد ... وسكبت العصير فى شفتيك
فسكرنا من الغرام وجُنَّت ... نشوة الحب من سنا عينيك
قبلات الهوى سلافةُ حب ... قيَّد الحبُّ أسطريه عليك !

والذى يقول :

داعبت ثغرها بثغرى وقالت ... دائماً أنت فى ابتسام وفنّ
قلت لا غرو لو تبسم ثغرى ... مُذ رأى القلب فى الضلوع يغنى

ومنا الذى يقول :

لا تهابى الفناء روحى يوماً ... إنما المرء لا محالة مودى !
واضحكى واسخرى فدهرك يجرى ... ضاحكا ساخراً لتلك اللحود !

ثم فينا الذى يقول :

فسيرى بىَ يا ربة آلامى إلى السدره
فإنى ضقت بالإنسان لما أفسد الفطره
ألا يا ليتنى مت كما هامت به فكره
ولم ألق إلى الأرض كياناً سجنه بَشره

* * *

وأخيراً ما أجمل أن يتناقش جيل وجيل ! وما أروع حديث الأب لولده والولد لوالده ! إن فى مثل هذا الحديث صلة روحية تسعد الآباء ، وتشرح صدر الأبناء ، وتخلق فى نفوسهم صفة الاعتماد على النفس واستقلال الشخصية .

محمود البشبيشى

حاشية : كل ما جاء على لسان ولدى « حسين حسنى محمود البشبيشى » فهو من فكره ويكاد يكون فى ألفاظه .

تنظر إلى انتشار نفوذ السنوسية بعين غير عين الاستحسان .
ومن الجائز أن انتقال السنوسي في سنة ١٨٥٥ إلى جغبوب وهي واحة صغيرة في الشمال الغربي من واحة سيوة على خط عرض ٣٠ كان لرغبته في تجنب الاحتكاك بالأتراك. وهناك في جغبوب توفي إلى رحمة الله في سنة ١٨٥٩ أو سنة ١٨٦٠ وخلف ولدين : الأكبر محمد شريف، سمي كذلك تيمناً باسم سلطان واداي ولد سنة ١٨٤٤، والثاني المهدي ولد سنة ١٨٤٥ . وقد خلفه في زعامة الإخوان المهدي . ويقال إن الولد الأصغر أظهر ذكاء وكفاية أكثر من أخيه ، ولذلك قرر الوالد أن يختبرهما ؛ وأمام جميع الإخوان في جغبوب أمر والديه بتسلق نخلتين عظيمتي الارتفاع وسألهما باسم الله ورسوله أن يقفزا إلى الأرض ، فقفز المهدي في الحال ولم يصب بسوء في حين رفض الأكبر . وإلى المهدي الذي لم يخش أن ينفذ إرادة الله انتقلت ولاية العهد التي كانت من نصيب الأكبر . ويظهر أن محمداً قبل مصيره هذا بلا تذمر ، وقد تولى القضاء والتشريع في زاوية الإخوان تحت رياسة أخيه إلى أن توفي إلى رحمة الله في سنة ١٨٩٥

السنوسي المهدي

كان عمر السنوسي المهدي حين خلف والده أربعة عشر عاماً ومع ذلك كان يتمتع بجميع ما كان يتصف به والده من الشهرة والحكمة والعلم .وقد فاتنا أن نذكر أن الأمير محمد شريف سلطان واداي توفي سنة ١٨٥٨ ، وخلفه السلطان علي الذي حكم حتى سنة ١٨٧٤ والسلطان يوسف وتولى الحكم حتى سنة ١٨٩٨ وكلاهما كان مخلصاً في اتباع تعاليم السنوسية . وفي عهد السنوسي المهدي انتشرت تعاليم السنوسية من فارس إلى دمشق ومن القسطنطينية حتى الهند . وكان الطريقة في الحجاز أتباع عديدون ، وفي معظم هذه الأنحاء احتلت السنوسية مركزاً قوياً يفوق كثيراً من الطرق الإسلامية الأخرى . أما في بلاد النيجر وهي تقع شمال بلاد نيجيريا فلم تنل السنوسية نجاحاً ، ذلك لأن مسلمي هذه البلاد ما كانوا يعترفون إلا بسلطة سلطان سوكوتو ، ولكن الحال كان مختلفاً في الصحراء الشرقية وفي أواسط السودان ، فإنه من حدود مصر الغربية جنوبي دار فور وواداي وبرنو ، وغرباً إلى بيلما ومرزوق، وشمالاً إلى شواطئ طرابلس كان السنوسي المهدي أقوى شخصية وكان له من النفوذ ما يجعله الحاكم الفعلي ، ولذلك كانت الواحات المنتشرة في صحراء ليبيا تحتل وتزرع بواسطة السنوسيين؛ وازدهرت التجارة مع طرابلس وبني غازي واستقر النظام والأمن بين البدو الرحل قاطني الصحراء

وبالرغم من أن والده سماه المهدي فإنه لا يوجد أقل دليل على أنه ادعى أنه المهدي المنتظر ولو أن بعض أتباعه يعتقدون فيه ذلك. وحينما قام محمد أحمد الدنقلاوي بثورته على المصريين في شرق السودان وادعى أنه المهدي المنتظر قلق السنوسي وأرسل وفداً عن طريق واداي إلى محمد احمد فوصل الوفد إلى معسكره في سنة ١٨٨٣ بعد سقوط مدينة الأبيض بوقت قليل . ونترك هنا للسير ريجنالد وبجت وصف ما حدث كما جاء بكتابه عن المهدية والسودان المصري الذي ظهر سنة ١٨٩١

كان وفد السنوسي مشبعاً بتعاليم السنوسية الدينية والأخلاقية فراع الوفد الذايع والخراب البادي حول محمد أحمد أينما حل، وكان الوفد يشعر بأن هداية العالم بواسطة المهدي المنتظر تكون بتأثيره في الغير كي يحيا الناس حياة صحيحة مستمدة عمادها العمل الشريف والاعتماد على النفس . وقد شاطر السنوسي المهدي وفده هذا الشعور وقرر قطع كل صلة بالمهدي السوداني بالرغم من أن محمد أحمد أرسل إليه مرتين ليقبل أن يكون أحد خلفائه الأربعة ، راميا بذلك أن يكسب تأييد السنوسي ذي التأثير العظيم على المصريين ، ولكن ظلت رسالتاه بلا رد . وفي الوقت نفسه حذر أهالي واداي وبرنو والبلاد المجاورة بأن ينفضوا أيديهم من كل ما له علاقة بأمور السودان . ويجب ألا يخفى أن الثورة التي حدثت في سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٨٩ في دارفور ضد الخليفة عبد الله التعايشي كانت تدار باسم السنوسي

اشتباك السنوسية مع الفرنسيين

قلق الأتراك من ازدياد شهرة الشيخ السنوسي مرة أخرى . وقد لاحظ السلطان عبد الحميد الثاني أن سلطة الشيخ في كثير من أجزاء طرابلس وبنغازي أعظم من سلطة الحكام العثمانيين . ففي سنة ١٨٨٩ زار الشيخ السنوسي في جغبوب حاكم بنغازي التركي على رأس بعض قواته . وكان هذا الحادث سبباً في ترك الشيخ لجغبوب ونقل مركزه إلى الجوف في واحة الكفرة ،

وهو مكان بعيد بعداً كافياً يجعله فى مأمن من أى هجوم مفاجئ

وحوالى هذا الوقت بدا خطر جديد على السنوسية ، وهو أن الفرنسيين كانوا يزحفون من الكونغو متجهين إلى حدود مملكة واداى الغربية والجنوبية . وقد رأى السنوسى فى سنة ١٨٩٨ أن يجمع فى اتحاد واحد جميع البلاد المهددة من الزحف الفرنسى ، ولذلك فكر فى التحالف مع رابح الزبير وسلطان بجرى ولم يكونا من أتباع السنوسية ، ولذلك كان سعيه بلا نتيجة

وفى واداى كان خلف السلطان يوسف وهو السلطان إبرهيم الذى تولى الملك سنة ١٨٩٨ يهمل نصائح الشيخ ، مشجعاً فى ذلك بهزيمة الخليفة عبد الله التعايشى فى أم درمان . وكان رد السنوسى على هذا أن حرم على أهالى واداى تدخين التبغ وشرب الريسة (البيرة الوطنية) فأرسل السلطان إبرهيم إلى السنوسى بأن شعبه يحارب ويموت فى سبيل الريسة ، وأنهم قد ينبذون تعاليم السنوسية ليشربوها . وكان السنوسى المهدى حكيماً فى تنازله عن رأيه ، معلناً أن الله أجاب على صلاته بأنه جل شأنه قبل أن يستثنى أهالى واداى من هذا التحريم . ولما توفى السلطان إبرهيم سنة ١٩٠٠ وقع خلفاؤه تحت سلطان السنوسى المهدى مرة أخرى

وفى سنة ١٩٠٠ غادر السنوسى واحة الكفرة إلى دار جوران على الحدود الغربية من سلطنة واداى ، وهناك فى جيرو على قمة التل الصخرى أنشأ زاوية وحصنها تحصيناً قوياً راميا بذلك أن يصد أو على الأقل يعوق تقدم الفرنسيين الذين قتلوا — فى نفس هذه السنة — رابح الزبير فى معركة واحتلوا بلاد بجرى . ورأى الشيخ أيضاً أن يمنع الفرنسيين من احتلال قانيم وهى بلاد تقع فى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد على الحدود الصحراوية . وبذلك للمرة الأولى بدأ احتكاك السنوسية بالقوات الأوربية

وقد كان هناك اعتقاد بين بعض الرحالة الفرنسيين والإنجليز أن السنوسيين ربما يعلنون حرب الجهاد وأنهم بذلك ينالون مساعدة جميع المسلمين فى شمال وغرب أفريقيا ، وهذا الاعتقاد كان بعضه مؤسساً على تعاليم السنوسية ذاتها والبعض الآخر على التخيلات المبالغ فيها من قوة السنوسيين

وكان عدد محاربى السنوسية الذين يدينون بالطاعة للسنوسى مباشرة عدة آلاف قليلة . ولذلك كان السنوسى يعتمد على سلطته الروحية وتأثيره فى هؤلاء الذين قبلوا تعاليمه بأن يأتمروا بما يريد

ويستدل من تاريخ السنوسى الأول والسنوسى الثانى على أنهما كانا داعماً فى صف الدافع . والسنوسى المهدى فى تعرضه للفرنسيين لم يكن فى الحقيقة يقوم بحرب هجومية ، وقد أضعف مركزه أنه لم يجتمع تحت إمرته من القبائل عدد عظيم

فأخذ يحارب فى قانيم مع أتباعه من البدو مطلقياً مساعدات قليلة كان يقوم بها أهالى هذه المدينة ، وفى أثناء ذلك أنشأ زاوية فى بيرعلالى ، وهى ملتقى تجارة طرابلس بالبلاد الموجودة حول بحيرة تشاد ، وحصنها تحصيناً قوياً واستؤنفت الحرب واستمرت ما يزيد على السنة ، وبعد قتال شديد سقطت بيرعلالى فى يد الفرنسيين فى يناير سنة ١٩٠٢

وقد تأثر السنوسى المهدى بهذه الهزيمة ومات بعدها بقليل فى ٣٠ مايو سنة ١٩٠٢ فى جيرو ودفن فى زاوية التاج ولكن البدو يعتقدون حتى الآن بأنه ما زال حياً وأنه غادرهم فى مهمة سرية

وكان أبناء المهدى السنوسى صغاراً قاصرين ، فانتقلت زعامة الإخوان إلى ابن أخيه السيد أحمد الشريف وهو رجل طموح ذو مقدرة فائقة ولكن تنوزه حكمة من سلفوه . واستمر سيدى أحمد فى سياسة عمه وهى مقاومة الفرنسيين ، ولكن رغم جهوده وبعد كفاح طويل دام من سنة ١٩٠٤ حتى ١٩١١ سقطت واداى فى أيديهم ، وبذلك انهار سلطان السنوسية فى أواسط السودان .

وكان السنوسيون يحتفظون لمصر وللسلطات البريطانية فيها بأجمل الود . ولما رأى سيدى أحمد نشاط الفرنسيين استحسن الانتقال إلى الجوف فى واحة الكفرة . وهناك وعلى واحات أخرى فى صحراء ليبيا كان السيد المطلق ، ولم يكن لاعتراف فرنسا بأن الصحراء واقعة فى دائرة النفوذ البريطانى أى أهمية لديه

وكان عدد أتباعه فى مصر داعماً فى ازدياد ، وفى الإسكندرية كان يعيش السيد محمد الإدريسى أكبر أبناء المهدى السنوسى وسط أملاكه مستقبلاً أتباع السنوسية من جميع أنحاء البلاد

(البقية فى العدد القادم)

عيسى يعقوب
المهندس الزراعى